المسلمون في أوربا:

قصص من الأندلس

— ٤ —

رجل الحرب والسلام

عبد الرحمن بن الحكم

تأليف
الدكتور سعد اسماعيل شلبي

الناشر عالم الكتب
٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - بالقاهرة

المسلمون فى أوربا :

قصص من الأندلس

مقدمة

ولدى العزيز . . .

إنك تسمع كثيراً عن الحضارة التى تعيش فيها أوربا الآن ، ولك أن تعتز بأن أجدادك العرب هم سبب هذه الحضارة ؛ فقد ذهبوا إلى أوربا سنة ٩٢ هـ وأقاموا دولة الأندلس — مكانها أسبانيا والبرتغال الآن — ومكثوا بها حوالى ٨٠٠ سنة فنقلوا إليها العلوم العربية ، ونشروا فيها التقدم والعمران ، فاقتبست أوربا من هذه الحضارة ، وجعلتها أساس نهضتها الحديثة .

ألا يستحق هؤلاء العرب أن تعرف تاريخهم ، وما تضمن من أمجاد وبطولات ؟ !

هذا ما تجده فى « قصص من الأندلس »

ولمكتبة « عالم الكتب » ولصاحبيها الأستاذين :

« محمد طاهر — ويوسف عبد الرحمن » الأثر المشكور فى نشر هذه المجموعة ، وتقديمها إليك فى هذه الصورة المشرقة .

ونسأل الله العون والتوفيق .

« المؤلف »

(١)

قامَتِ الجارِيةُ « طَروب » ذاتُ الحُسنِ والدَّلال ، مِن نَوْمِها مُبَكِّرَة وَخَرَجَتْ إلى شُرْفَةِ قَصْرِ قُرْطُبَةَ ، تَسْتَقْبِلُ نسائِمَ الصَّباح مُعطَّرَةً برائحةِ الفُلِّ والياسِمينَ ، وأزهارِ الأشجار فى حَديقةِ القصْرِ الكبير . .

وَلم تكدْ تأخُذُ مَجلِسَها حَتَّى رَأَت الجارِيةَ « شِفاء » ذات العَقْلِ وَالذَّكاء — قد سَبَقَتْها إلى الشُّرْفَةِ ، وَاسْتَلْقت فى هُدوء عَلَى كرْسِيٍّ كبير ، وقد أرْسَلت بَصَرَها عَبْرَ البَساتين إلى مِياهِ الوادى الكبير تَسِيرُ فى رِفْقٍ وَأَناةٍ وَأَسْلمت أُذُنَها إلى تَغْريد البلابلِ ، وَشَقْشَقَةِ العَصافِير وَقْتَ البُكورِ .

قالت طَروبُ :

— نَعِمْتِ صَباحًا يا شِفاء . . أَجِدُكِ دائمًا تَسْبِقينَ إلى كلِّ

شَيْء جَميلٍ فَتَأْخُذِينَ بِنَصِيبِك ، ثمَّ أَبْحَثُ عَنْ نَصِيبى فَقد أجِدُهُ ، وقد لا أجِدُهُ . فاعتَدَلَتْ شِفاء فِي جِلْسَتِها وقالت فى جِدٍّ وَاهْتِمام :

— نَعِمْتِ صَباحًا يا طَروب . . دائمًا تَحْسِدِينَنِى وَتَبْخَلِينَ عَلَىَّ حَتَّى برائحَةِ الزَّهْرِ وَنَسْمَةِ الصَّباح ! ! ماذا تَقْصِدِينَ بِنَصِيبِك الَّذى أَخذْتُه ؟ !

— أَقْصِدُ قَلْبَ مولاى الأميرِ عَبدِ الرَّحمن ؛ إنَّه يُحِبُّكِ وَيُقدِّرُكِ يا شفاء ؛ إنَّه مَفْتون برأيكِ وحَدِيثك .

وَتَسْكُت طروبُ قليلاً ثمَّ تقول :

أنا الفتاةُ الحسْناء — طروبُ ، لا بدَّ أن أَصلَ إلى قَلْبِهِ وأَسْتَوْلى عليه ! .

قالت شِفاء . . فى زهْو ، وكيفَ تَصِلين إلى قلْبِهِ يا طروب؟ !

— بِمفتاحٍ لا تَمْلِكينَه أَنْتِ . . بقوامِى المُعْتَدِلِ ، وعَيْنَىْ

الزرقاوين — ومَسَحَت بيَدِها عَلَى شَعْرها . . وأمْسَكت بخُصْلةٍ مِنهُ وقالت :

أنا طروبُ الفتاةُ الأسبانيَّة . . ذاتُ الشَّعر الذَّهبي . . سوف أفْتِنُهُ بجمالى . . وَمَنْ يَدْرى لعَلِّى أُنجبُ له ولداً يُحبُّه فأكون المفضَّلة عِنْدَه وَيحْكمُ ولدِى الأندلس مِن بَعدِهِ ؟ !

مَنْ يَدْرى ؟ ! أليْست أمُّهُ أسبانيَّة ؟ ! ألم تكُنْ جاريةً مِثْلى فى هذا القَصْر ؟ ! . . ألم تُنجبْ لِلْحَكمْ ولَدَه عبدَ الرَّحمن ! ؟ مَنْ يدرى ؟ ! فقاطعتها شفاء .

— أحلامٌ وأوهام . . إنَّ مولاىَ لا يُحِبُّ مِن جواريه أحسَنَهُنَّ جَمالاً — ووضعَتْ إصْبَعها عَلَى جَبينِها وقالت :

ولكنَّه يُحِبُّ أكْثرهنَّ عقْلا وحكمةً .

قالت طروب :

— أتتَّهمينَنِي بالغباء يا شفاء ؟ ! أتدَّعينَ أنَّك ذكِيَّةً وأنَّنِي غَبِيَّة ؟ ضَحِكت شِفاء وقالت :

— باللهِ عليكِ يا طروبُ أن تَسكتى ، لا تُحدِّثينى عن الجمالِ والدَّلالِ أو الذكاء والنباء ، ولا تُمَنِّى نَفسَك أن تكونى أمًّا لِوَلِيِّ العَرْشِ ؛ فَلِمَوْلانا الآنَ عِشرونَ وَلَدًا كلُّ واحِـــدٍ منهم يستَطيعُ أنْ يحكُمَ الأندلسَ ، وَيكفيكِ فَخرًا أن تكونى جاريةً فى قَصْرِ مولانا الأميرِ « عبدِ الرحمن » نحنُ الآنَ فى شَهْرِ ذى الحِجَّةِ وبعدَ أيَّامٍ سَيأتى شَهْرُ مُحَرَّمٍ — أولُ العامِ الهِجْرى ، وفيه يَبدأُ الجَيْش مَسيرتَه إلى الشمالِ ، وَسَيَتولَّى مولانا بنفسه قيادَةَ الجَيْشِ فى هذه الغزوةِ . . وعِنْدَما يَتْرُك مولانا قَصْرَه ، ويُغادِرُ قُرطُبَةَ سيَخلولكِ الجَوُّ ؛ فَطيرِى وَامْرَحِى وَتخيَّلِى أنَّكِ الملكةُ ، وَأنَّكِ الأميرة وَأنَّكِ صاحبةُ هـذا القصرِ العظيم . . .

قالت طروبُ فى لهفةٍ :

— وأنتِ يا شِفاء ؟!

— أمَّا أنا يا طروب فَسَوْفَ ألازِمُه ، وَسَيكونُ مَعنا مِن جواريه « متعةُ وسحرُ وفخرُ » هذه رغبةُ مولانا ؛ فقد قال لنا

كلٌّ واحدةٍ منكُنَّ ستكون مَعِى ، ولَن يَقِلَّ دَوْرُكُنَّ عن دَوْرِ الْجُنْدِىِّ فى مَيْدانِ الْقِتال !

— أَلَيْسَت هـذه مُهِمَّةً شاقَّةً يا شِفاء ، فنحنُ الْجَوارى لا نُجيدُ إلَّا الرَّقْصَ والْغِناء والضَّرْبَ عَلَى الْعودِ واللَّعِبَ بالأوتار

— لعلَّ مَوْلانا فى هذهِ الْغزْوةِ يُريدُ مِنَّا أن نحْمِل السُّيوفَ ونَضْرِبَ الأعْناق ! !

فَزعت طَروبُ وقالت :

لو كنت مكانك يا شفاء . . . لفكرت فى حيلة اهرب بها

— لو كُنتُ مَكانَكِ يا شفاء لَفَكَّرْتُ فى حِيلةٍ أَهْرُبُ بها وما أشْرَقَت عَلَىَّ شَمْسُ الصَّباحِ فى ذَلِكَ الْقصر ! !

قالت شِفاء فى حَزْمٍ :

— أَلم تَقولى مُنْذُ قَليل إنَّ مولانا من أُمٍّ أسبانية ؟ ! وَأَنا وأَنْتِ وكلُّ جَوارى القَصْر مِن الأَسْبانِ ؛ فهُوَ ابن خالَتنا ، ومِنْ حَقِّه عَلَينا أَن نَقِفَ بجوارهِ وأَنْ نُدافِعَ عن عَرْشِه .

— لا . . لا . . يا شفاءُ ، يُدافِعُ عنْ عَرْشِه ويخوضُ الحُروبَ معهُ آلافُ الأَسبانِ الَّذينَ اعْتَنَقوا الإسلامَ ، وهؤُلاء العَرَبُ الَّذينَ جاءوا إلى الأَندلِس وهم يُتْقِنونَ أَساليب القتالِ وهؤُلاء وهؤُلاء يُحِبُّون مولاكِ ويَفْدونهُ بالأَرْواح والدِّماء .

يا شِفاء ، نحْن لِلْحُسْن والدَّلال ، وهم لِلْحَرْب والنِّزال ! !

هَزَّت شِفاءُ رأْسَها وقالت :

— إن الإسلامَ الَّذى آمَنَّا به لا يَهتمُّ بحُسْنِنا وجمالنا ! !

فقاطعتْها طروب قائلةً :

— وليْسَ فى حاجةٍ إلى دِمائنا وَأَرواحِنا ! !

أَريحينا مِن فَلْسَفَتِك يا شفاء . . ! !

قالت شفاء بصَوْتٍ يظْهَرُ فيه الحزمُ :

سأريحُـك ! ! ...

الْويل لِلأَنْدَلسِ مِن كلّ أَسبانيَةٍ مِثلك ياطروب ! !

فَصَعَد الدَّمُ إلى وجْهِ طرُوبَ وقالت فِي صَوْتٍ يظْهرَ فيه الغَضَبْ والسُّخرية . .

— والْويلَ لِأوربا كلّها منْ كلّ أندلسيَّةٍ مثلِكَ يا شفاء .

(٢)

هناك عَلَى الحدودِ بين فرنسا وأسبانيا الْتقى بولِسُ ملِكُ فرنسا مع الْفونس الثّانى مِلك الأسبانِ .

قال بولِسُ لملك الأسبان :

— أَخْبِرْنى كيفَ حالُ المُسلمين فى الأندلس ؟

— لا يَزالون يُمَثِّلُون الخَطَرَ الكبير لدولَتِنا ودَولَتِكم ، . . . تَمُرُّ الأعْوَامُ فتَزْدادَ قوّتهم ويَنْتَشِرُ دينُهم ، وَيقبلُ النّاسُ عَليهم يحبُّونهم ويَتَعلّمون لُغَتهم ، ومِنَ الْغَريبِ أَنَّكَ تَجِدُ كثيراً من أَهْل الاندلُس لا يَعْرفُون اللغَةَ اللّاتينيَّة ، وَلَا يَسْتطيعون قِرَاءة الإنْجيل إلاَّ إذا كان مَكْتُوباً باللُّغَةِ الْعَربيةِ . .

— كُنّا نَظن أن دَوَلة المسلمين بالأندلسِ سَوفَ تَنْهار بَعْد موت الحَكم بن عبد الرحمن ! ! . . إنّنا نسمعَ الغريب مِن الأخْبارِ عن عبد الرحمن هـذا ! !

خُذْ . . أَنْظُرْ يا ملك الفِرِنج . . أعندكَ مثل هذا ؟

— ما هذا ؟ ! قِطعَةُ نُقود أندلُسيَّةٍ . . إنَّها فى غايَةِ الجمال والصَّنْعَةِ المُحكَمَةِ .

— هذا قَليلٌ مِن كَثير ، إنَّه يُفكِّرُ فى الصُّعُودِ إلى السَّماء إلَى النُّجوم ! ! إلى الأقمار ! ! وكأنه لم يَقْنَعْ بالأرْض فامتَدَّتْ أطماعه

* * *

إلى السَّماء ! ! تَعَجَّبَ لويسُ وأخَذته الدَّهشةُ وقال :

— كيْفَ هذا ؟ ! أخبرنى ! فإنى أسْمَعُ أمْراً عَجَباً ! ! أأنتَ صادِقٌ فيما تقول ؟ !

— نعم . . أنا لا أكذِب عَلَيكَ ، لقد اختار وزراءه من العلماء كثيراً ما يَجْلسُ معهم يَدرُسُ حَرَكاتِ النُّجوم ومَنازل الشَّمْسِ والقَمَرِ ، والأعْجَبُ مِن ذلكَ ما يحكيهِ النَّاسُ عَن وزيرٍ له يُسَمَّى « عبَّاسَ بنَ فِرْناس » ! !

يُقَال عَنْهُ : — إنَّه اخترع من حِجَارَةِ الجِبَال زُجاجاً شَفافاً

وجَعَل دارَه عَلَى هَيْئةِ السَّماء ، وفِيها النُّجومَ والْغُيومَ ، والرَّعدُ والبَرْق ! !

عباس بن فرناس يحاول الطيران وجمـــاعة من الاندلسيين ينظرون اليـــه

والْأغْرَبَ مِن هذا كلِّه أنَّه يُحاول أن يَطير مِثْلَ طُيور السَّماء ! !

وعبْدُ الرَّحمنِ يُشَجِّعه . ويذْهَب إلى دارِه ويُـكثر مِن الجُلوسِ معَـه ! !

— والْأسبانِيَّاتُ ما حالُهُنَّ فى دولته ؟

— عَلَى اتفاقٍ معه ، مَلأَ بهنَّ قصره ، وَتَزَوَّج المسلمونَ منهنَّ وأخلصتِ الأسبانيَّاتُ لهم وأنجبْن خيرَ الأبناء ؛ ويكْفى أنْ يعْلَمَ أنَّ أمَّه أسبانيَّةٌ أخلصَت لأبيه ، وربَّت ولدَها أحسن تَربيةٍ وأعَدَّته حتَّى صَارَ مَلِكاً عظيما ..!!

مَدَّ لويسْ يدَه إلَى ألفونسو وقال ،

— شُدَّ عَلَى يَدِى . وأنَا أَشُدَّ عَلَى يَدِكَ ، الحل بَيْنَ أيْدِينا ، نَتَّحدُ ؛ نُعْلِنْ عَلَيْه حَرْباً ، نُهاجِم الثُّغورَ والعواصِمَ الإسْلامِيَّةَ وفى الْوقْتِ نفسِه نُرسِلَ الجَواسِيسَ مِن الرِّجالِ والنِّساء يُذَكِّرُون المسيحِيِّينَ الذينَ أَسْلموا بماضِيهم ، ويذكِّرُونَ الأندَلُسيِّين بدَولَتهم الَّتى اسْتَوْلى عَليها عَرَبُ .

الفِتنَ الدِّينيَّةَ الفِتَن السِّياسيَّةَ .. بِهذا السِّلاح نَقْضِى عَلَى هؤلاء المسلمين ونطرُدهم مِنَ البلاد .

وكان يجلِسُ بجوار الفُونْسو ولدُه « راميرو » فَقال :

ولماذا لا نَعيشُ فى سَلامٍ مع المسلِمينَ يا أبى ؟! فإنَّهم يَدْعونَ إلى التَّسامُحِ ويعْمَلونَ عَلَى رُقِّ البِلاد ! !

فزَجَره وَالِدُه . . ثم وجَّه الحديثَ إلى لويسَ وقال :

نعم . . . لابُدَّ أن نَطْرُدهم مِن البِلاد حتَّى نَعيش فى أمانٍ .

✡✡✡

وتَماهَد المَلِكانِ ، وَصَدَق كلٌّ مِنْهما فى عَهْدِه ، وَأَخَذَتْ طلائع جيوشهم تهاجِمُ المسْلِمين فى شَمال الأنَدلُس ، وأسْرَابُ جواسِيسهم تَنْتَشر بين المسلمين فبَعَثَتِ الأحْقادَ ، وَأَثارَتِ الْعَصَبِيَّةَ ، وَالخِلافاتِ الدِّينِيَّةَ فى الحَقْلِ وَالمصنعِ ، والمسجدِ والكنيسةِ ، وَبين الرِّجال والنِّساء ، وَالفِتيان وَالْفَتَيات . . . وَأَحسَّ الأميرُ عبدُ الرحمن بذلك ، فقد أتَتْ إليهِ الرُّسل مِن شَمال الأندلُسِ وَحَمَلت إليه أخبارَ هذهِ المؤامراتِ ، وَشكَت مِن هذه الهجماتِ الْمُتلاحِقَةِ عَلَى الإمارات العرَبِيَّة فى الثُّغور الشَّمالية

فَصَمَّمَ الأميرُ عبدُ الرحمن عَلَى أن يَقودَ الحَرْبَ بِنَفْسِه

وتولى عبد الرحمن بنفسه قيادة الجيش الكبير ... وقال لقواد جيشه : سيروا على بركة الله .. ولكم النصر ان شاء الله

وَأَعْلَنَ ذَلِكَ عَلَى رُءُوسِ جُنودِه ، فَشاعت الحَماسَةُ ، وَالشَّجاعةُ ؛ وَأَصْبَحَ كلُّ جُنْدِيٍّ كأنَّه جَيْشٌ يَتَدَفَّق عَزْمًا وَقُوَّةً ، وَرَغِبَتْ نِساءُ القَصْر فى أن يَخْرُجْنَ مَعَ الأميرِ فَرَفضَ وَلم يَسْمَحْ إلا لأربعةٍ مِنْهُنَّ ، أَذِن لَهُنَّ بالذَّهابِ معه « شفاء ، وسحر وَمتعةُ وَفَخر . . »

وكُنَّ عَلَى جانِبٍ كَبيرٍ من السِّحْرِ والجَمال يُجِدْنَ الغِناء ، ويُتْقِنَّ الحَديثَ بالعَرَبِيَّةِ ؛ وَيَتَحَدَّثْنَ بِلُغَةِ أَسْبانيا وفَرَنسا .

✡✡✡

وفى أوّلِ عام ٢٢٥ هـ تَحَرَّكَ الجَيْشُ بِقيادَةِ الأمير . . وخَرَجت قُرْطُبَةُ وسارت مَعه عِدَّة أمْيالٍ تُودِّع الجيْشَ وتَهْتِفُ بِحياةِ الأمير وتَتَوَقَّعُ لَه الفَوْزَ العَظيم .

وتابَعَ الجَيْشُ المسيرَ نحْوَ الشَّمالِ ، وكُلَّما مَرَّ بِمَدِينَةٍ أوْ قَرْيَةٍ أسْرَعَت لِاسْتِقْبالِهِ ، وَالحفاوَةِ بِهِ ، وَانْضَمَّ إليهِ كلُّ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى القِتَال .

✡✡✡

ونظَرَ عَبْدُ الرَّحمن فوَجَدَ خلْفَهُ أمْواجًا من الجُنود تَسْتَعِدُّ لاكْتِساح الأعداء من الفِرِنْجِ والأسْبان . . فَوَجَّه بعضَها إلى إقليم « طُلَيْطِلةَ » والثَّغْر الأوسَطِ ، وإلى المَناطِق الجَبَلِيَّةَ فى فى شمال الأندلس .

وتولَّى بِنَفْسِهِ قيادَةَ الجَيْش الكَبير الَّذى سَيُهاجِمُ أَلْفونسو ومَن تَجَمَّعَ حوله من جنودِ الفرنج ، وقالَ لِقُوَّادِ جيْشِهِ :

سِيروا عَلَى بَرَكَةِ الله . . وَلَكُمُ النَّصْرُ إن شاء الله .

✡✡✡

وَقبل أن يَتحرَّك الجَنْشُ دخَل الأميرُ عَلَى جواريه فما أن وَقَع نَظرهُنَّ عَليْه حتَّى أسرعْنَ فقُلْن فى صَوْتٍ وَاحِد :

— كلُّ شَىْء عَلَى ما يُرام يا مَوْلاى . . قد اخْتَرْنا الجوارى ...

فابْتَسمَ الأمِيرُ وَقَال :

حَيَّاكُنَّ الله . . . ماذا فَعلْتُنَّ ؟ !

قالت شِفاء :

لقد اخْتَرْنَا مِن بَيْن الرَّقِيق عَشْرًا مِن الجوارى يَعْرِفْنَ لُغَةَ أسْبانيا وَفرنسا ، وَيُجِدْنَ بِجِوارِ ذلِكَ اللُّغة العَرَبِيَّةَ ، وَلَهُنَّ مَهَارَةٌ فى التَّعَرُّفِ عَلَى نِسَاء القُصورِ ، وَالتَّقرُّبَ إلى القَادَةِ وَعُظماء الرِّجال . . .

سيَذْهَبْنَ إلى مُعَسْكراتِ الأعْدَاء فى الأقاليم وَالثُّغور . . .

سيَذْهَبْنَ إلى مَجالِسِ اللَّهْو وَالْغِناء . . يُغَنِّينَ وَيَرْقُصْنَ ، وَيَتَعَرَّفْنَ عَلَى ما يجُولُ فى القُلوب وَما يدورُ فى العقولِ . . وَأنْتَ تَعْرِفُ يا مَوْلاىَ ما سَيَفْعَلْنَ بَعدَ ذلك .

قال الأميرُ :

وكَيْفَ نَضْمَنُ إخْلاصَ هؤلاء الجوارى يا شفاء ؟ !

أسْرَعت شفاءُ وقالت :

الأمْرُ بيدِك يا مولاى . . بعد النَّصْرِ إن شاء اللهُ تُنْعِم عليهن بالحريَّة وَتُلْحِقُهُنَّ بِنساء قَصْرك .

— لَهُنَّ عَلَىَّ ذلك يا شفاء .

قالت شفاء :

— يا مَولاى . . هَا هُمْ أُولاء . . مُرْهُنَّ أن يَذْهَبْنَ إلى حَيث تريدُ . .

وأرْسَلَ الأميرُ مع كلِّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ خَمْسَةً مِن جُنوده الأقوياء الَّذين يُحْسِنونَ التَّنكُّرَ ، والتَّظاهُرَ فى زىِّ الأسْبانِ أو الفِرنج وَكان هؤلاء الجنود واسِطةَ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ قوَّادِ المسلمين ، يَحْملونَ الأخْبارَ ويكْتَشِفونَ الخِطَطَ ، ويُبَلِّغونها لِقادَةِ المسلمين .

وَرَكِبَ هؤلاء خُيولاً سَريعةً وَمَعَهم الجوارِى ، وانطَلَقوا فى

سُرْعةِ الرِّيح إلَى المواسِم والثُّغور .

✡✡✡

ثمَّ زَحَفَتِ الْجُيوشُ الْعَرَبِيَّةُ ، وهاجَمَتِ الأعْداء فى كلِّ مكانٍ فى وَقْتٍ واحِدٍ ، فَكانَت مُفاجَأةً مُذْهِلَةً ، لم يَسَعْ يعوا الثَّباتَ واضْطَرُّوا إلى الْفِرار .

وبفَضْل شَجاعَةِ المسْلِمينَ وَتَخْطيطِهِم الْبارِع لمعارِكِهم ، وَبفَضْل الرُّوح المعْنَوِيَّةِ الْعالية الَّتى بثها الأميرُ عَبدُ الرَّحْمنِ فى جُنودِه أحْرَزَتِ الْجيوشُ الْعَرَبِيَّةُ انْتِصاراتٍ رائِعةً فِى جَميع الْمَيادِين .

✡✡✡

جَلَس أَلْفونسو فِي قَصْرِهِ حَزِيناً يُعانِى آثارَ الصَّدْمة وَحَوْلَه قوّادُه يُعانونَ مِن خَيْبَةِ الأملِ ، وعار الهزيمةِ ، وفِرارِهم أمامَ المسلمين .

وفى أثناء ذلكَ دخَل حارِسُ الْقَصْر وَقال :

— عَرَبِىٌّ بالْبابِ يَسْتأذِن فى الدُّخول .

قَال ألفونسو فى لَهْفَة :

— أَدْخِلْه .

قال ألفونسو فى لهفة أدخله ... فلما وقف أمامه حياه ثم قال ... مولاى الأمير عبد الرحمن بن الحكم يحييك ... ويقول :

فلمَّا وقَفَ أَمامَهُ حَيَّاه ثم قال :

مولاى الأميرُ عَبدُ الرَّحمن بنُ الحَكَمِ يُحيِّيكَ . . ويقولُ : إِنَّنا لم نَعْتَدِ عَلَيْكَ ، ولكِنَّكَ الَّذى سَبَقْتَ بالعُدوان ، ولم نحْضُر لِبلادِك إِلَّا لحمايةِ المسْلِمينَ من شَرِّ جُنودِك . . وعَلَى الرَّغْمِ من النَّصْرِ الَّذِى أَحْرَزْناهُ فإِنَّنا لم نَهْدِمْ بَيْتًا ، ولم نَقتُل شَيْخًا أَو طِفْلا ، ولم نَعْتَدِ عَلَى النِّساء كما كَان يَصْنعُ جنودُك ! ! نُريدُ أَن نَعيشَ مَعًا فى أَمانٍ لا نُحارِبكَ ولا تُحارِبنا ، ولا نَعتَدى عَلَيْكَ ولا تعتدى عَلَيْنا . .

فرَدَّ عليْهِ ألفونسو بغضَب شَديد :

قُلْ لمولاكَ : إنَّ نصْرَكَ هذا لن يَدومَ ، وإنَّنِى سأنتقِم مِ ه ! ! سَأنْتقِم ! !

وكان بِجِوارِهِ ولَدُه راميرو . . فهزَّ رأسَه وقالَ فى نفسِه : ليتَ والدِى قد اسْتَمع إلى رَأْيى ! !

أمَّا جيوشُ الأميرِ عبدِ الرحمن فقــد رَجَعت رافِعَةً أعْلامَ النَّصْرِ ، وأُقِيمت لها الحَفَلاتُ فى عَواصِم الأنْدلُسِ ، وطارَ خبرُ النَّصْرِ إلى قُرْطُبَةَ فخرَجَت بِجُمُوعِها تَسْتقْبِل الأميرَ البَطلَ المجــاهِد .

✡✡✡

وفِى المساء أُضِيئَت المصابيحُ فِى المكانِ الفَسيح أمامَ القَصْر الـكَبيرِ ، وتَوافَدتِ الجُموعُ من أهْلِ قُرْطُبَةَ والبِلادِ المجاوِرةِ وكلُّهم فَرَحٌ وسرورٌ ؛ فَقَدْ عَلِموا أنَّ الأميرَ قد أمَرَ مُغَنِّيَه الخاصَّ « زِرْياب » أن يُغَنِّى للناسِ ، وَيمتِّعَهم بِفَنِّه البارعِ ، ومَهارَتِه فى الموسيقا والغِناء .

وفى بَدْء الاحتِفالِ تقدَّمَ الشُّعراءُ فألقَوْا قصائِدَهم ، وهنَّئوا الأميرَ ، وأثنَوْا على شَجاعتِه ، وحِمايتِهِ للأندلُس ، وحرْصِهِ على السَّلام .

ثمَّ خرَجَ زِرياَبُ بِقامتِهِ الطَّويلَة ، ولَوْنه الأسْمر ، وأناقَتِهِ فى هيْئَتِهِ ومَلابِسه ، وفى يمينِهِ العودُ الَّذى صَنَعهُ بِنَفْسهِ فجعلَ بَعْضَ أوْتارِه مِن الحَريرِ اللَّيِّن النَّاعِم ، وَجَعَل بعضَها الآخرَ من أمعاء الأَسَدِ .

وَلمَّا رآهُ النَّاسُ اسْتَقْبَلوه بالتَّصْفيقِ والتَّرْحيبِ وابْتَسَمَ لهم زِرْياَبُ فَبَدا ثَغْرُهُ مُشْرِقاً ، وانْشرَحَ صَدْرُه لهذهِ التَّحيَّةِ فى تِلْك المناسَبةِ الحُلْوَةِ ، وزادَ صَدْرُه انْشِراحاً عِنْدَما رأى الجماهيرَ التى تَجلِسُ أمامَه تقلِّدَه فى زِيِّهِ وهَيْئَتِهِ وأناقَتِهِ ، فَسَكَّنُوا شُعورهم وَنَظَّفوا مَلابِسَهم وَتَعَطَّروا بِالْعِطْرِ الذَّكىِّ وَرَأى خَدَمَ القَصْرِ يَطوفونَ على الجماهير ، يقدِّمونَ لهم الشَّرابَ الحُلْو فِى كُئُوسٍ مِن الزُّجاجِ الشَّفَّافِ .

وَنظرَ زِرياَبُ فرأى نفسه وَكأنَّهَا تَظْهَرُ فى كلِّ شَخْصٍ يَجْلِسُ أَمامَهُ ، وَرأى تعاليمَه قد انْتَشَرَت فى الأندلسِ ، فأَخَذَتْه نَشْوَةُ

زرياب يغنى وحوله الجوارى والصبيان

الطَّرَبِ ، فجلَسَ على أَرِيكَتِه ، ثُمَّ أَشارَ إلى مَن حَوْلَه مِنَ الجوارى والصِّبْيانِ ، ومرَّت يدُه رَقِيقَةً هادِئَةً على الْوَتَرِ الْحَرِيرىِّ الأَبْيَضِ فإذا الصَّمْتُ الْعَمِيقُ يُخَيِّمُ عَلَى الحاضِرِينَ وكأَنَّهُمْ فِى نُعاسٍ هادِىءٍ أَو هُدوءٍ ساحِرٍ . .

وتغنّى بلحنِه :

« عِشْتَ يا رَجُلُ السَّلامْ عِشْتَ يا مَلِك الْوِئامْ »

وَجَواريه وصِبْيانُهُ يُرَدِّدون بَعْدَه :

« عِشْتَ يا رَجُلَ السَّلامْ »

ثمَّ ضَرَبَ فى عُنْفٍ على الْوَترِ الأَحمرِ ، وَترِ الأَسدِ وأَنشَد :

« فإذا بَدَتْ لَكَ غَضْبَةٌ قُلْنا على الدُّنيا السَّلامْ »

فإذا النَّاسُ فى حَماسَةٍ وَهِياجٍ ، وكأنّهم قاموا مِن نَوْمِهم مَذْعورينَ فابْتَسم زِرْيابُ ، وضَربَ على الْوترِ الخامِس الَّذِي اخْترعَه ، وأَضافَه إلى الْعُودِ فانبعَثَ مِنه لحنٌ فيه حَزْمٌ وجِدّ ، وغنَّى وَفِرْقَتُه تُرَدِّدُ مِن غيرِ شعور :

« عاشَ الأَميرُ فإنَّه لِلنَّصْر أَمْسَكَ بالزِّمامْ »

فإذا الجماهيرُ تُردِّدُ مِنَ غير شُعورٍ :

« عاشَ الأَميرُ فإنَّه لِلنَّصْر أَمْسَكَ بالزِّمامْ »

وتلاعَب زِرْيابُ فى هذه اللَّيْلةِ بقُلوب الأَندلُسيِّين ، وعُقولهم

وَسَهِرَت قُرْطُبَةُ مَعَ مُغَنِّي الخَلِيفَةِ سَهرةً ممتِعة .

وَفى غَمْرَةِ هذا الفَنِّ سَمِعَ النَّاسُ صَوْتًا هَزَّ المشاعِرِ وَالأبْدانَ إنَّه صَوْتُ المؤَذِّنُ لِصَلاةِ الصُّبْحِ :

الله أكْبر . . الله أكْبر . .

فرَدَّدَ زِرِيابُ الآذانَ وَرَدَّدهُ النَّاسُ مِن خَلْفه ، وَانْصَرفوا جَمِيعاً لِلصَّلاةِ . .

وَعاشَ الأَنْدَلُسِيُّونَ عامًا أو يَزيدُ يتحدَّثونَ عن انتِصاراتِ الأميرِ وَبَراعَةِ مُغَنِّيه . . .

ثمَّ بدأَت شائِعاتٌ تَصِلُ إلى مَسامِع الأَمير :

إنَّ هُناكَ مُحاولاتٍ مِنَ الأَعداء لِنَشر الفِتَنِ بَيْنَ صُفوفِ الأَنْدَلُسِيِّينَ، وَصارَت هذه الشَّائعاتُ حَقيقةً ، فإذا الخِلافات تَنْتَشِرُ بينَ المسْلِمينَ وَالمسيحِيِّين . . .

حَزِنَ الأَميرُ عبدُ الرحمن . . وَقال : إنَّه لَسِلاحٌ رَهيبٌ يحارِبُنا به الأَعداءُ ! ! الْمُسْلِمُ وَالْمَسيحي أَخَوان ! ! ولكنَّ الاعداء يُريدونَ أَن يَتباغَضَ الأَخَوانِ ، وَيَتَقاتلا ثمَّ قال وعَلَى وجْهِهِ سَحابةٌ من الْحُزْنِ ، وَالأَلمِ ، أَعْداؤُنا لا يَنامُونَ ، إنَّهم يُريدونَ الْقَضاءَ عَلَينا ، وَحِقْدُهم جَعَلَهُمْ يَسْتَغِلُّونَ الدِّين أَسْوَأَ اسْتِغْلال ! !

المسيحِيَّةُ دِينِ المحبَّةِ ، وعِيسى رسول السَّلامِ ، ويُريدُ أَعْداؤُنا

أن يُحوِّلُوا المحبَّةَ إلى عَداوة ، والسَّلامَ إلى خِصام ! ! ولـكنَّ رَحْمَةَ الله أقوى من كَيْدِهم . . وَقُوَّةَ اللهِ فَوْقَ مَكرِهم .

✡✡✡

وَفى وقتِ الأصيلِ والشَّمْسُ تَنْحَدِرُ نحوَ المغيبِ جَلَس الأميرُ فى شُرْفةِ قَصْرِه ، يُفكِّر ، كَيْفَ يَنْهَضُ بالأندلُسِ ؟ ! ويجعَلُ أَهْلَها أسْعَدَ النَّاس ؟ !

وبينما هُوَ غارِقٌ فِى تفكيره سَمِعَ أصواتًا مُزْعِجَة ، وَنظَر فإذا جماعاتٌ مِن الرِّجالِ والأطْفالِ يُطارِدُون فَتاةً وَيَرْمونَها بالحجارَةِ ، والفتاةُ تَجْرى أمامَ القَصْر ، فصاحَ الأمير بحرَسِ قَصْرِهِ :

أنقِذوا الفتاةَ ، وافْتَحوا لها أبْوابَ القَصْرِ ، واحْمِلوها إلىَّ ، ولما جَلَست الفَتاةُ بَيْنَ يَدَىْ الأميرِ سألها :

— ما اسمُك ؟ !

قالت :

— فلورا :

— ولماذا يُطاردُك الأطفال والرِّجالُ ؟ !

— لأنّى أُومنُ بالمسيح ! !

قال الخليفةُ فى ذُهولٍ :

— عَجَبًا ! ! وأنا مِثْلُكِ أومِن بالمسيح كما أُومنُ بمحمّد ! ! ، فعيسَى — عَلَيْهِ السَّلامُ أخٌ لمحمدٍ عَلَيْه السَّلامُ ! !

يا فلورا . . كُونِى مُسْلِمةً أو كُونِى مسيحيَّةً ، قال تعالى : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » ! ! فأنْتِ حُرَّةٌ اختارى ما شِئْتِ وأنتِ فى حِمايَتى . . أنْتِ فى أمانٍ وسَلام . . لا تخافى . . سَتَعيشِينَ وَلَكِ الْحُرِّيَّةُ الكامِلَة فى الدِّين الَّذِى تُحِبِّينَ فالدِّينُ لله . . وَنَحْنُ عَبيدُه . . مَن أبوكِ يا فلورا ؟ وأيْنَ هو ؟ !

بكَت فُلورا بُكاءً شَديداً وَقالت :

— يا أميرَ الأندلس . . لا تُذَكِّرْنى بِأبى ! ! لقد مَات وأنَا فى الثَّامِنة مِنْ عُمْرى ! ! ، وكَان يُحِبُّنِى ، وَيَعْطِفُ علىَّ وَكُنْتُ

بكت فلورا بكاء شـــديدا وقالت : يا أمير الأنـــدلس ... لا تذكرنى بأبى !!

ألازِمُهُ . . كان يأخُذُنى إلى المسجد يُصَلِّي ، وَأُصَلِّى معه ! ! لم أَذُقْ طَعْمَ الرَّاحَةِ مُنْذ وَفَاتِهِ ! !

تَرَكَنِي لِأُمِّى المسيحِيَّة . . تأخذنى إلى الـكَنِيسة . . وَتُحَبِّبُنِى فِيها ، أُصارِحُك . . لقد اسْتطاعَتْ أُمِّى أن تُسَيْطِرَ عَلَيَّ ، وجعَلَتْنِى أَتْرُكُ الإسْلامَ ! ! وَأُعْلِن أَنِّى مسيحِيَّة ! ؟

قَال الأميرُ بِعَطْفٍ وَإشْفاقٍ :

— أَلَكِ أخوة ؟ !

— أَخٌ وَاحِدٌ أَيُّها الأمِيرُ . . إنَّه يَكْرَهُنِى . . يكرَهُنِى ! ! يُهَدِّدُنِى بِالْقَتْلِ ؛ لِأَنَّه مُسْلِم ، رَبَّاهُ وَالِدِى عَلَى تعاليم الإسْلام . .

لقد كانَ ضِمْن هؤلاء الذينَ يُطاردونَنِي ! ! كانَ يضْرِبُنِي ! ! كانَ يَرْمِينِي بِالحِجارَة ! !

لم أَجِدْ مَنْ يَعْطِف عَلَى أَيُّها الأمير ! ! إنَّنِي أُقاسِي الأَهْوالَ ! ! حَزِينَةٌ عَلَى أَبِي . . أَخافُ مِنْ أَخِي ! ! فِي حَيْرَةٍ بَيْنَه وَبينَ أُمِّي ؟ .

مَسَحَ الأَمِيرُ عَلَى كَتِفِ فلورا وقالَ بِصَوْتٍ يملأُه العَطفُ وَالحَنانُ :

— أَمَا تُحِبِّينَ أَن أَكُونَ لَكِ أَبًا ؟ ! وَشِفاءُ جارِيتِي العزيزةُ ، لكِ أُمًّا . . ؟ وَأَبْنائِي جَمِيعًا لَكِ أُخْوَةً . . ؟ !

زاد بكاءُ فلورا وقالت :

— وَأُمِّي . . أُمِّي أَيها الأميرُ . . إنَّنِي أُحِبُّها . . أُحِبُّها . . وَأَوَدُّ أَن أَكونَ بجوارِها .

— كما تشائينَ يا بُنَيَّتِي . . سَأُصْدِرُ أَوامِرِي بِحِمَايَتِكِ وحِمايَةِ أَمْثالِكِ مِن أَوْلادِ المسلمين . . ارْجِعِي إلى وَالِدَتِك ، وَعِيشِي مَعَها فِي أَمَان ، وَلَنْ يَسْتَطِيعَ إِنْسَانٌ أَن يَمَسَّكِ بِسوء .

وَأَعْطاها الأَميرُ مِائَتَيْ دِينارٍ ، وَذَهَبَتْ فِي حِمايَةِ عَسْكَرِهِ إلى

وَأَمَرَ أخاهَا أنْ يَعْطِفَ عَلَيْهَا . .

وَأَرْسَلَ إلى شَيْخ قُرْطبة « يحيى بنِ يحيى » وَإلى كَاتِبِ الْقَصْر الأسْقُف « جُومت بنِ أنْطونيان . . وَأَمَرَهما أن يَجْمعا الشُّيوخ وَالأساقِفَةَ وَأن يَزُوروا مَعًا المساجِدَ وَالْكنَائِسَ دَليلا عَلَى الْوَحْدَةِ الأنْدَلسِيَّة فى ظِلِّ السَّماحَةِ وَالمحبَّةِ والسَّلام .

(٤)

وَنَسِيَ الاندلُسيُّون الخِلافَ بِفَضْل سَماحَةِ رِجالِ الدِّين مِنَ النَّصارى والمسلمين ، فتَوَحَّدَتِ الصُّفوفُ وامْتَلأتِ القُلوبُ بالمحبَّةِ والتَّقديرِ لِلأميرِ العَظِيم « عبدِ الرَّحمنِ بنِ الحكم » .

وَعَلِمَ بذلِكَ ألفونسو . . وَأَحَسَّ بخيْبَةِ الامَل ، فَحَزِن ، ولازَمه الحزْنُ حَتَّى ماتَ ، وَتَوَلَّى بَعْدَه ابنُه الأميرُ « راميرو »

✡✡✡

وفِي عَهْدِ هذا الامِير أتى من شمالِ أوربَّا جيوشٌ كبيرةٌ من النُّورمانِ ، وهم قَوْمٌ فى غايةِ الفَوْضَى وَالوَحْشِيَّةِ . مَجوسٌ ؛ لا دين لهم ، ولا يَحْتَرِمونَ الاديانَ ، فأكْثَرُوا الفَسادَ فِي فَرَنْسا ثمَّ هاجَمُوا الشَّواطِىء الاسبانِيَّةَ ؛ فاحتَلُّوا الثُّغورَ ، وَنَهَبوا الاموالَ ، وَانْتَهَكوا حُرُماتِ المساجِدِ والكنائِسِ ، وَقَتَلوا الاطْفالَ وَالشُّيوخ ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَى كلِّ ما وَصَلَتْ إليْهِ أيْديهِمْ ، ولم تَسْتَطِعْ فَرَنسا أنْ تَقِف أمامَهمْ ، وَعَجَزَتْ جيوشُ رَاميرو عن صَدِّهم ، فَفكَّر

فى الاستعانةِ بجُيوشِ المسلمينَ فِى الدِّفاعِ عَن بِلادِهِ ، وَصَدِّ هؤُلاء الغُزاة ، وَأَرْسَلَ إلى الاميرِ عَبدِ الرحمن يَطلُبُ مِنه العَوْن وَالْمُساعَدَةِ .

✡✡✡

تَقَدَّمت الجيوشُ النورمانيةُ ، تَنْهَب وَتَقْتلُ ، وَتوغَّلت فى الأندلسِ حَتَّى اسْتَوْلتْ عَلَى « إشْبِيلِيَّةَ » ؛ فاسْتَنْجَدَتْ هـذه الْمَدِينَةُ بالاميرِ عبدِ الرَّحمن بن الحكم ، فَجَمَعَ قوَّادَ جَيْشِهِ وَأمَرَهُمْ بالتَّوَجُّهِ فِى الحالِ ؛ لإنقاذِ إشْبِيلِيةَ ، وَبِلادَ الأندلسِ مِنْ هؤُلاء الغُزاةِ المتوحِّشينَ ، وَجَمَعَ حَرَسَ قَصْرِهِ وكانَ يَتكوَّن مِنْ ثلاثَةِ آلافِ فَارِسٍ ، فأَمَرَهم بالاشتراكِ فى الحرْب ، وَقال : لستُ فى حاجَةٍ إلى حِمَايَتِكم . . اذْهَبوا مَعَ الجَيْشِ ، وَتَقَدَّموا الصُّفوفَ وَكونوا أَنْتُمْ أَوَّلَ الْمُهاجِمينَ ، وجَعَلَ قيادةَ الجَيْشِ كلِّه لأميرِ حَرَسِهِ الفَتى « نَصْر » .

وَانْطَلَقَ الجَيْشُ فى سُرعَةِ البَرْقِ إلى إشْبِيلِيةَ ، وفى الصَّباحِ

البا كر تقابلَ مَعَ النُّورمانِ بالقرب مِنْ شَواطىء وَادِيها الكبير .. وفوجِيء النُّورمانُ بالجُنودِ البواسِل يُمطِرونَهُمْ بوابلٍ مِنَ السِّهام، ثمّ يَقفِزونَ عَلَى سُفُنِهِمْ، وَتَتَحَوَّلُ السُّفُنُ إلى ميادينِ قِتالٍ عَنِيف.

وتحولت السفن الى ميادين قتـــال عنيف

وَكَتَبَ اللهُ النَّصْرَ للمسلمين ، فَفَرَّ النورمانُ إلى الشمالِ ، والمسلمونَ يُطارِدُونهم ، وَعَلِمَ بَذلِكَ الأسْبانُ من سُكانِ الشَّمال ، فأسْرَعوا بِقيادَةِ راميرو يَنْضَمُّونَ إلى جُنودِ المسلمين ، وَيُقاتِلونَ مَعَهمْ ، فانْهَزَمَ النورْمانُ وَفَرُّوا إلى شَمال أوربّا ، واسْتَراحَ راميرُو

مِنْ شَرْم وكادَ يَطِيرُ مِنَ السُّرور .

✡✡✡

وَأَتَتْ الرُّسُلُ إلى الأميرِ عبدِ الرحمن حاملةً بُشْرَى النَّصر بِفَضْلِ بطولاتِ المُسْلمينَ وَبراعَتِهِمْ فى القِتال ، وَبرَاعةِ الفَتى نصرِ قائدِ حَرَسِ الأمير ، وَثباتِه فى المعارِك ، وَقُدْرَتِهِ الفائقةِ عَلَى إنْزالِ الهزائمِ بأعْدائِه الجبَّارين .

✡✡✡

وَشَمِلَت الفرحَةُ جميعَ النَّاس ، وَأُقيمَت حَفَلاتُ النَّصر فى أسْبانيا وَالأندلس ؛ فعَزَفَت الموسيقا ، وَدَقَّتِ الطُّبول وَارْتفعَت الأصْوات بأعْذَبِ الالحان .

✡✡✡

وَفى عَهْد الاميرِ عبدِ الرَّحمن بنِ الحكم ارتقَت الاندَلُس ، فَقدْ تَقَدَّمَ بالزِّراعَةِ وَالصِّناعةِ وَالتِّجارةِ ، وَبنَى كَثِيرا مِن المساجدِ وَالمدارسِ وَأَنْشَأَ مَكتَبةً عَظِيمةً فى قُرْطبَةَ ، فتَّحَتْ أبوابها لكلِّ

مَنْ يُريد القراءةَ مِنَ المسلمين وَغَيْرِ المسلمين .

✡✡✡

وحكم هذا الاميرُ الاندلسَ أكثرَ مِن ثلاثين عاماً

وَتُوفِّىَ فى شَهْر ربيع الثانى سنةَ ٢٣٨هـ وَكانَ عُمْرُه أكثرَ مِنْ

سِتِّينَ عَاما

✡✡✡

وَقَد حَزِنَ لِوفاته المسلمونَ فى بِلادِ الاندلس ! !

كما حزِنَ عَلَيْهِ المسلمون فى بلادِ المشرِق ! !

وقد شاركهم فى الحزْنِ عليه كثيرٌ من بلاد أُوربا ! !

وَكأنَّهم قالُوا جميعاً عندما عَلِموا بموتهِ :

يَرْحَمُ اللهُ الاميرُ عبدُ الرحمن ! !

لَقَدْ كانَ رَجُلَ الحرب ! !

وَكان رَجلَ السَّلام ! !

ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟

وكيف حال الأندلس ؟

وكيف حال المسلمين وجيرانهم من الأسبان وسكان الشمال ؟

هذا ما ستعرفه فى القصة التالية :

« أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر »

مطبعة دار العالم العربى
٢٤ شارع الظاهر بالقاهرة ـ تليفون : ٩٠٦٧٠٦